مجلة مركز بحوث و دراسات المدينة المنورة

العدد السادس رجب - رمضان ١٤٢٤ هـ سبتمبر - نوفمبر ٢٠٠٣ م

- حامية المدينة المنورة وثورة الشريف حسين
- تقاليد الخدمة والشعائر في المسجد النبوي عام ١٢٠٦ هـ/١٧٩١ م
- واجهات المباني التقليدية بالمدينة المنورة : دراسة في التجانس المعماري
- رحلة جوزيف بيتس إلى الحجاز عام ١٠٩١ هـ/١٦٨٠ م
- أثر العادات الغذائية في البنية الجسدية للشباب

  طلاب وطالبات المعهد الصحي بالمدينة المنورة نموذجاً

الأوضاع الصحية في الحجاز أواخر العهد العثماني

قراءة في كتاب (الحجر الصحي في الحجاز ١٨٦٥ -١٩١٤م)

د. يوسف بن حسن العارف

مدير إدارة الثقافة والمكتبات بإدارة تعليم جدة

مقدمة تعد منطقة الحجاز -بصفة عامة -ومناطق الحج فيها - بشكل خاص -مناطق قابلة لانتشار الأوبئة والأمراض ، لأنها تستقبل في كل عام موسم الحج الذي يفد إليه من أقطار العالم الإسلامي حجاج متعددو الأجناس والبيئات بكل ما يعنيه التعدد من قيم وعادات وأساليب حياتية وتقاليد وأفكار وصحة ومرض ، وغير ذلك .

وقد أفاضت الأدبيات التي تتحدث عن الحج والحجاج في هذه المسائل ، وأشار الرحالة والزوار إلى كثير من المعاناة من الأمراض والأوبئة التي تنتشر في الحج ويعاني منها الحجاج ومنها ما يحملها الحاج من بلده ، أو تنقل إليه بالعدوى أثناء سفره ، أو يصاب بها خلال حجه ، ثم يعود بها إلى بلاده - إن سلمه الله من الموت والفناء - .

ولعل أمراض الصدر ، والاحتقانات الدماغية ، وضربات الشمس ، وأمراض العيون ، والكبد والجهاز الهضمي و (الدوسنتاريا) وأمراض الجدري و (التيفوئيد) والحميات و (الكوليرا) ، من أبرز الأمراض والأوبئة التي سجلها الرحالة والحجاج في كثير من مواسم الحج[1] .

وتشير كثير من المصادر إلى أن تدني الأحوال الصحية في مناطق الحج ، يعود إلى قلة الاهتمام بالمجال الصحي والعناية بالنظافة ، وفساد الهواء في مكة ،

---

(١) انظر : البتنوني ، محمد لبيب : الرحلة الحجازية ، ط٣ ، الطائف : مكتبة المعارف ، (د.ت) ،ص ص ٦٤ وما بعدها .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وعدم الوعي لدى الحجاج ، أضف إلى ذلك الاستخدام السيئ لمياه الشرب ، ورمي الذبائح والأضاحي في الطرقات ، وعدم وجود دورات مياه صحية وكافية لجميع الحجاج ؛ مما يؤدي إلى سوء الأحوال الصحية ، وتفاقم الأمراض وانتشار الأوبئة بين الحجاج ، الأمر الذي يستدعي الحكومات المشرفة على الحج والحجاج ؛ سواء في ولاية الحجاز حيث شرافة مكة وحكامها من الأشراف ، أو الحكومة العثمانية أن تسنَّ النظم والقوانين الصحية ، وتعمل على تخفيف هذه المشاكل بفتح المشافي وإرسال البعثات الطبية ، وإقامة المحاجر الصحية ، وإنشاء المستشفيات والصيدليات ، وإنشاء شبكات الصرف الصحي ، وحل مشاكل المياه .

في هذا السياق تتبلور طروحات كتاب أصدره مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض عام ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م بعنوان : الحجر الصحي في الحجاز ١٨٦٥ -١٩١٤م ، لمؤلفته الدكتورة جولدن صاري يلدز ، وكان في الأصل رسالة جامعية قدمتها المؤلفة التركية بلغتها الأم ، ولأهميتها الفكرية وعلميتها وحداثتها في بابها ، فقد ترجم الكتاب من التركية الدكتور عبد الرزاق بركاته ، ومراجعة الدكتور مسعد الشامات .

تكمن أهمية هذا المنجز العلمي في جملة من الأمور ، نصنفها فيما يلي :

١ - إنه إضافة جديدة ومفيدة للمكتبة التاريخية لأنه يقوم على مادة وثائقية عثمانية تُجَلِّي كثيراً من ضبابيات الأوضاع السياسية ، والإدارية ، والاقتصادية في الدولة العثمانية ومنطقة الحجاز ؛ كونها إحدى الولايات التابعة للعثمانيين في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

٢ - إنه يقدم رؤية كاملة وشاملة للأوضاع الصحية ، والإدارية ، والاجتماعية لمنطقة الحجاز ، ودور الحج والحجاج في كل المسائل الصحية ، والدور الذي قامت به الحكومة العثمانية لحل هذه المسائل .

٣ - إنه يوضح حقيقة المؤامرة الاستعمارية الغربية ، التي كانت تتزعمها (إنجلترا) آنذاك ، والتي تهدف إلى : اغتيال (الرجل المريض) ، وإجهاض الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، التي تبناها السلطان عبد الحميد الثاني .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

٤ - إنه يؤرخ لمرض (الكوليرا) الذي انتشر في منطقة الحجاز ، قادماً مع حجاج الهند ، وحمله الحجاج إلى مناطق جديدة من العالم ، امتدت ما بين مصر وإيران حتى بلغت أوروبا ، الأمر الذي حرَّك الدول العظمى فاتخذته ذريعة للتدخل في أمور الحجاز .

٥ - إنه بَيَّن الدَّور الكبير الذي قامت به الدولة العثمانية في صدِّ الهجمة الأوروبية ، والتفاعل مع القضايا الصحية في الحجاز ، وإبعاد هذه المنطقة عن المداولات الاستعمارية .

٦ - إنه يحدد الجهود التي قام بها العثمانيون في إصلاح الأحوال الصحية في الحجاز ؛ وذلك بإرسال الهيئات الطبية ، وإنشاء المستشفيات ، وإقامة المحاجر الصحية ، وسنِّ النظم والقوانين الصحية .

٧ - وأخيراً فهذا الكتاب يعد أول دراسة وافية وشاملة عن موضوع الحجر الصحي في الحجاز ؛ سواء في لغته الأم التركية ، أو في اللغة العربية وهو بذلك يكمل ويتم نقصاً كبيراً في السياق التاريخي والمعرفي ، المرتبط بتاريخ الدولة العثمانية ، وتاريخ منطقة الحجاز .

الحالة العامة أواخر العهد العثماني

تعتبر الفترة التاريخية التي يعالجها هذا الكتاب : (١٨٦٥ - ١٩١٤م) من أغنى الفترات التاريخية العثمانية بالفتن والقلاقل والاضطرابات ؛ ففيها ساءت الأحوال السياسية والاقتصادية لدرجة أن الغرب أطلق عليها : (الرجل المريض) . وفيها بدأ التدخل الأوروبي في جميع القضايا والمسائل العثمانية ، وفيها ظهرت الجمعيات الداخلية التي تربت في أحضان الغرب وبدأت بوادر التمرد والعصيان على السلطنة العثمانية ، وفيها برزت الولايات العثمانية البعيدة تطالب بالاستقلال والحكم

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الذاتي ، وفيها أخيراً ضعفت القبضة العثمانية على الولايات العربية ومنها ولاية الحجاز[١] .

كل هذه الظروف جعلت الحكومة العثمانية في منأى عن الحجاز والمشاكل الصحية التي يعانيها خلال مواسم الحج وقدوم الحجاج ، ولهذا يناقش الكتاب في قسمه الأول (ص ص ٤٣ - ١٣٦) المسألة الصحية في الحجاز بعد انتشار وباء (الكوليرا) عام ١٨٦٥م ، وموقف الدولة العثمانية من ذلك ، والموقف الدولي الأوروبي الذي انبنى على هذه المشكلة الصحية .

الأوبئة ذريعة للتدخل الأجنبي

لقد ظهر وباء الكوليرا أول مرة في الحجاز عام ١٨٣١م وتكرر ظهوره بعد هذا العام خمس مرات أخرى[٢] فتحركت دوائر السياسة الغربية والأوروبية تجاه هذه الأزمة ، وحاولت التدخل ليكون الحجاز - وهي المنطقة الثانية - ضمن استراتيجياتها الاستعمارية ، فأدرجت هذه المشكلة ضمن جدول أعمالها السياسية الدولية ، وتنبهت الحكومة العثمانية لخطورة هذا الأمر ، فتحركت لإجهاض المحاولة الأوربية ، وبدأت في عمل الاحتياطات اللازمة للتخفيف من حدة المرض أو القضاء عليه . ولكن الدول الأوربية تداعت لعقد المؤتمرات الصحية لوقف زحف هذا الوباء القادم من أراضي الدولة العثمانية ، فكان مؤتمر باريس الأول عام ١٨٥١م .

وبناء عليه طالبت الحكومة العثمانية بعقد المؤتمر الصحي الثاني في استانبول عام ١٨٦٦م لدراسة الحالة الصحية في البحر الأحمر والولايات العثمانية ، ومنها الحجاز ، **وخرج المؤتمر بمجموعة من القرارات أهمها** :

---

(١) انظر د . زكريا سليمان بيومي : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، جدة عالم المعرفة ، ط١،١٤١١/١٩٩١م ، ص ص ٢٠٣ وما بعدها .

أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ط١ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص ص بيروت : دار الشرق ، ٢٠٩ وما بعدها .

(٢) عام ١٨٣٨م ، ١٨٣٩م ، ١٨٤٠م ، ١٨٤٦م ، ١٨٦٥م . الكتاب نفسه ص ٤٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

- تأسيس محاجر صحية على سواحل البحر الأحمر .
- تشكيل هيئة تُكَلَّف بخدمة الضبط الصحي بمكة المكرمة .
- ترك مسألة حماية أوربا من الأمراض الوبائية الجنوبية إلى الدولة العثمانية على اعتبار أن وباء الكوليرا انطلق من الحجاز[1] .

موقف الدولة العثمانية

كما يعالج هذا القسم مجموعةً من المحاور التي تُبَيِّن الاهتمام العثماني بمسألة الصحة في الحجاز ، من خلال إرسال الهيئات الطبية من العاصمة العثمانية ، وتكليف الأطباء المصريين والإدارة المصرية لتشكيل النظم الصحية وتطبيقها في سواحل البحر الأحمر ، وإنشاء المحاجر الصحية مع ما يتطلب ذلك من مصاريف ونفقات ، وتأمين طرق الحجاج ، وتحسين وسائل النقل وخاصة السفن والبواخر الشراعية .

ويخلُص هذا القسم من الكتاب إلى نتيجة مهمة وهي : **أن الدولة العثمانية لم تألُ جهداً في سبيل الدفاع عن المقدسات الإسلامية** ، وسعت إلى تحسين الأحوال الصحية في الحجاز قدر إمكاناتها ، ورغم كل تلك المحاولات فإنها دخلت في صراع مع الدول العظمى ؛ التي انتهزت ظهور هذه المسائل الصحية لتقوي قبضتها ، وتسعى إلى تفتيت (الرجل المريض) ، واستلاب الكثير من ولاياته .

ثم تنتقل مؤلفة الكتاب إلى القسم الثاني (ص ص١٣٩ -٢٣٧) والذي خصص لمناقشة الأوبئة - وبخاصة الكوليرا - التي تعرضت لها منطقة الحجاز في الفترة من ١٨٣١م - ١٩١٦م ، وكان عددها اثنتين وعشرين مرة تتعاقب أحيانًا عاماً بعد عام ، وقد تظهر في فترات قد تصل إلى عدة سنوات ، وأبرز هذه الأوبئة التي خلفت الكثير من الضحايا والوفيات ما يلي :

عام ١٨٦٥م وباء خطير وحصد الكثير من الضحايا .

عام ١٨٧٢م ظهر في شهر شعبان وقد انتقل المرض من الهند حتى وصل مكة .

---

(١) الكتاب نفسه ، ص ٤٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عام ١٨٧٧م ظهـر في شـهر ذي الحجـة وتسـبب في وفيـات كـثيرة وأول ظهوره بين الحجاج البنغاليين .

عام ١٨٨١م أشـد فتكـًا ممـا قبلـه، ظهر في ذي القعـدة ونقـل بواسـطة الحجاج الهنود.

عام ١٨٩٣م وهـو أشـد وبـاء ظهـر في تـاريخ الحجـاز ، بلـغ عـدد الوفيـات حوالي ٣٠.٣٣٦ ألف حاج .

عام ١٩٠٢م بدأ الوباء قبيل عيـد الأضحـى بـ ٢٨ يومـاً وكـانـت الوفيـات حوالي ٤٠٠٠ شخص .

عام ١٩٠٨/١٩٠٧م ظهـر الوبـاء في ١٣ (أكـتـوبر) بـين الحجـاج القـادمين مـن (بومباي) وكانت الوفيات حوالي ٤٧٣٩ حاج[١].

ثم تنتقل المؤلفة في هذا القسم إلى مناقشة موضوع يمس الحياة الاجتماعية في الحجاز ، من حيث البيوت والوضع السكني ، ودورها في الأحوال الصحية ، وخاصة في فترة الحج حيث يزداد عدد السكان بشكل ملحوظ في زمن معين ، ومكـان محـدد ممـا يشـكل كـثيراً مـن الضـغط الاجتمـاعي والسـكاني علـى المساكن والمنازل المعدة لإسكان الحجاج ، الأمر الذي يؤدي إلى مزيد من سوء الأحوال الصحية للمواطنين والحجاج على حد سواء .

أسباب انتشار الأوبئة وهنا تشير المؤلفة إلى مجموعة من السلبيات التي تؤدي إلى انتشار الأوبئة والأمراض ، مثل :

- قلة دورات المياه النظيفة في المساكن المعدة للحجاج .
- عدم وجود قنوات للصرف الصحي .
- انتشـار القـاذورات والمخلفـات وعـدم وجـود إدارة خاصـة بالنظافة العامة (البلديات)
- قلة الوعي الصحي لدى الحجاج وأخطائهم في عرفة ومنى[٢]

.

(١) الكتاب نفسه ص ص ١٣٩ -١٥٦ .

(٢) الكتاب نفسه ١٥٦ - ١٦١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وتؤكد الباحثة : أن أهم سلبية تساعد على تفاقم هذه الأحوال هي : الصراع السياسي بين الوالي العثماني في مكة والحاكم الفعلي من الأشراف ؛ مما شكّل خطراً كبيراً في ازدواجية السلطة والصراع العلني أو الضمني مما يجعل العمل بروح الفريق للتخفيف من حدة الأوبئة والأمراض أمرًا بعيدًا .

أما **مشكلة المياه في الحجاز ودورها في نشر الأمراض** ، وسوء الأحوال الصحية في هذه المنطقة ، فقد أفردت لها المؤلفة حيزاً لا بأس به من النقاش والمعالجة ، أكدت فيه على دور (عين زبيدة) في سقي الحجاج ، وما جرى عليها من الترميمات والإصلاحات لتبقى كذلك ، لكن المشكلة تكمن في سوء استخدام الحجاج لهذه العين وتعكير مجاريها مما يساعد على انتشار الأمراض ، وفي هذا الإطار يبدو دور الدولة العثمانية وحكومة الأشراف في الحجاز في الإصلاح والترميم .

وأهم وقفة في هذا القسم هو ما تحدثت عنه المؤلفة فيما **يتعلق بماء زمزم الذي اتهمه الأوربيون بأنه السبب في انتشار وباء** (الكوليرا) ، ولكن القائمين على أمر الحجاز فَنَّدُوا كل هذه الشائعات[1] ، وقاموا بوضع التدابير الخاصة بإصلاح الصحة ، والخطط واللوائح اللازمة لذلك الغرض .

ويُختتم هذا القسم برؤية عامة لمحاولات الدول الأوربية التدخل في شؤون الحجاز الصحية ، وهي وسيلة للتدخل في الأمور السياسية ، ومن هذه المحاولات ما يلي :

١ - تشكيل هيئة صحية مختلطة ؛ من أطباء مسلمين ، وأطباء من الدول الأوربية ، وتكون مهمتهم الإشراف الطبي على الحجاج قبل وصولهم إلى مكة .

٢ - منع الذهاب إلى الحج ، حيث أقدمت كثير من الدول الأوربية على فرض شروط تعجيزية على رعاياها الراغبين في الحج وذلك بحجة انتشار الوباء والمرض في الحجاز وحفاظاً على الصحة العامة ، ولذلك تم منع الكثيرين من أداء فريضة الحج .

---

(١) الكتاب نفسه ص ص ١٧٠ - ١٧٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

٣ - المؤتمرات الدولية الصحية : حيث عُقدت مجموعة من المؤتمرات الصحية لمناقشة هذه المسألة ، وفرض تدخل الدول الأوربية في شؤون الحجاز ، ولعل أهم تلك المؤتمرات هو المؤتمر الصحي في باريس عام ١٨٥١م حيث نتج عنه معاهدة باريس الصحية ، والتي أكدت على مجموعة من التنظيمات الصحية ، لمنع انتشار الأوبئة والأمراض بين الحجاج .

وبذلك تختم الباحثة القسم الثاني ، مؤكدة على دور الدولة العثمانية تجاه التطلعات الأوربية للسيطرة على الحجاز ؛ بحجة المرض والوباء المنتشر في مواسم الحج بمكة المكرمة ، والفعاليات العثمانية لإصلاح النواحي الصحية في الحجاز ، وإقامة المحاجر الصحية ، الأمر الذي جعل الباحثة تفرد القسم الثالث والأخير لمناقشة هذه المسألة ، حيث تمحور الحديث هنا عن الإجراءات الإصلاحية الصحية التي سنَّتها الدولة العثمانية رداً على التدخلات الأوربية وإبعاداً لها عن مسائل الحج والحجاز .

لقد تمخضت الإجراءات الإصلاحية العثمانية لمسائل الصحة في الحجاز عن : **تشكيل الإدارة الصحية بمكة المكرمة ، وما يتبع ذلك من لوائح وتنظيمات صحية ، كان لها أكبر الأثر في إيقاف التطلعات الأوربية نحو الحجاز** ، واستطاعت هذه الإدارة إقامة المصحات والصيدليات ودور الضيافة للفقراء ، كما أسست في كمران وجدة وينبع محطات لضخ وتنقية مياه الشرب ، وإنتاج الثلج ، وحلت مشكلة المياه إلى حد كبير ، ولم تتقاعس عن تسيير حركة الحجاج بشكل منظَّم .

أضف إلى ذلك إنشاء المحاجر الصحية ، ومد خطوط مياه الشرب في أنابيب حديدية ، وإعداد خرائط للمدن وتوسيع الشوارع ونظافتها وتوفير مبالغ مالية تحت مسمى : (رسوم الإصلاحات الصحية في الحجاز والنظافة) للصرف على هذه المشروعات التي تتبناها الإدارة الصحية بالحجاز .

وكانت كل البوادر **تشير إلى نجاح العثمانيين في الوصول إلى حل المشكلات الصحية بالحجاز** ، ولكن قيام الحرب العالمية الأولى ، ودخول

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الدولة العثمانية طرفاً فيها إلى جانب الألمان ، وإعلان العداء لبريطانيا والدول المساندة لها ، سجَّل النهاية الحتمية للدولة العثمانية وانضمام الشريف حسين إلى بريطانيا ١٩١٦م بعد تنصيبه ملكاً على الحجاز أدى إلى إلغاء كل تلك التدابير الصحية .

وبذلك تختم المؤلفة كتابها الوثائقي القيم والمتميز في معالجاته وطرحه ومنهجيته العلمية وموضوعيته ، الأمر الذي يجعله من الكتب التي تحتاجها المكتبة التاريخية ؛ لأنه كتاب وثائقي رائد من الدرجة الأولى ، يكشف لنا كثيراً من الوثائق العثمانية التي كانت حبيسة الأضابير في الأرشفة العثمانية .

والحمد لله رب العالمين

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة